هي في قلبي

قصة واقعية للشباب بقلم

الكاتب حامد علاء الدين

5356002

rekaaz.com

هي في قلبي

– راشد ... لقد تم ترشيحك كي تذهب لمتابعة دراستك في كبرى الجامعات الأمريكية على حساب الدولة.

كان هذا هو مدير قسم البعثات والمنح الدراسية في وزارة التربية والتعليم، وكان وقع الخبر مفاجئاً جداً لراشد، الذي دعي للمقابلة مع والده، إثر تفوقه في شهادة الثانوية، وبدا التردد واضحاً جداً على راشد وهو يتساءل في دهشة:

– أنا؟!

– نعم يا راشد. ونحن كلنا ثقة أنك جدير بتحمل المسؤولية، وأنك ستكون خير من يمثل البلاد، أنت وعدد آخر من الطلاب المتفوقين.

– ولكن....

ربّت أبو راشد على كتف ابنه في رفق وقال:

– إنها فرصة عظيمة كي تنال تعليماً حديثاً وتسهم في نهضة بلدك وأمتك.

سرت قشعريرة سريعة في جسد راشد مع سماعه للجملة... أطرق برأسه قليلاً ثم رفعه وقد امتلأت عيناه حزماً وعزماً:

– أجل يا أبي... إنها فرصة عظيمة.... من أجل أمتي.

***

راحت أم راشد تتأكد للمرة الثالثة من حقيبة وحيدها، وكانت تقاوم دموعها بصعوبة بالغة حينما دق راشد باب الحجرة في أدب:

– هل أستطيع ان أدخل يا أمي؟

حاولت أم راشد أن تبدو أكثر تماسكاً، وقامت باتجاه راشد:

– بالطبع يا بني... لقد كنت أتأكد فقط من محتويات الحقيبة... آمل آلا أكون قد نسيت شيئاً ما.

جاء صوت أبي راشد من الطابق السفلي:

– هيا يا أم راشد!... سوف نتأخر عن موعد الطائرة!

– دقيقة فقط... آه.. أجل... تذكرت!...

تحركت أم راشد مسرعة إلى أحد الخزائن وفتحتها، وأخرجت منها شيئاً ما، واقتربت من راشد:

– بني!... هذه وصيتي لك.

كانت أم راشد تحمل في يدها سجادة صلاة، نظر راشد إلى السجادة متأثراً.... فقد كانت أمه قد ابتاعتها له في آخر عمرة أداها مع والديه... تناولها برفق، قبلها ثم ضمها إلى صدره، وخرجت كلماته متهدجة خافتة:

– هي في قلبي يا أمي...هي في قلبي.

***

ساد الصمت في السيارة لفترة طويلة... كان راشد وأبوه غارقان في تفكير عميق... بدأت معالم المطار تلوح من بعيد، وهنا نظر راشد إلى أبيه، وقطع الصمت فجأة بسؤال ظل يلح عليه طويلاً:
– أبي... ألست خائفاً عليّ من الغربة ؟
– أخاف ؟! ولم يا بني ؟
– لأنني سأكون وحيداً، وبعيداً عنكم.
– راشد... لقد وكلت أمرك إلى ربي سبحانه... فهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين... أنا ولله الحمد لم أدخل بيتي فلساً واحداً حراماً... ولم أدخل أجوافكم لقمة واحدة من حرام... فلم أخاف ؟!... كما أنني واثق بك تماماً... وأعرف أنك سوف تتحمل المسؤولية كرجل ناضج...
كان وقع الكلمات عظيما جداً على راشد... وشعر لأول مرة أنه سيتحمل مسؤولية وثقة هائلين، وكانت هذه الكلمات أبلغ من أي نصيحة أو وعظ يمكن لأب أن يقوله لولده... وظلت تتردد في ذهنه حتى بعد أن حلقت الطائرة، وغابت عالياً بين الغيوم...

***

سريعاً مضت الأيام الأولى لراشد في غربته، فقد وصل إلى السكن الذي تم إعداده له من قبل الوزارة، وكان يشاطره فيه طالبان من السنة الثانية، وبدأ يتأقلم مع الحياة الجامعية وأجوائها الجديدة عليه، وفي أحد الليالي، وبينما كان راشد في شقته يذاكر دروسه، إذا به يفاجأ بباب الشقة يهتز في عنف، وقد علت من خلفه همهمات غاضبة... فتحرك في قلق نحو الباب، ونظر من خلال العدسة ليشاهد زميليه في وضع مريب... فتح راشد الباب، فإذا بزميله ناصر يحاول أن يسند جاسم ليقف على قدميه:
– هيا أيها الحيوان... أدخل... بسرعة قبل أن تفضحنا...
كانت حركة جاسم ثقيلة جداً، وكان هناك زبد كثيف يخرج من فمه وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.
صرخ ناصر في وجه راشد:
– وأنت... هل ستظل واقفاً هكذا بلا حراك ؟ ساعدني كي نلقي هذا البليد على سريره.
وفي آلية تامة راح راشد يساعد ناصر في نقل جاسم إلى فراشه، وشعر لأول مرة برائحة مزعجة تفوح منهما.
– أف... ما هذه الرائحة الكريهة ؟
رد ناصر في قسوة:
– لا شأن لك... احمل وأنت ساكت.

وما أن وضعا جاسم في سريره حتى غط في نوم ثقيل، وذهب ناصر هو الآخر إلى غرفته، ليتركا راشد غارقاً في ذهول عميق....

***

كانت ليلة صعبة جداً على راشد... فعبثا حاول أن يغمض جفنيه، لكن التفكير بزميليه في السكن قد أرقه... فمنذ مدة لاحظ أنهما يتغيبان كثيراً عن المحاضرات، ويتأخرا خارج السكن لفترات طويلة، ولا يقوما من نومهما إلا قريباً من الظهر...
لقد كان واضحاً أنهما قد انغمسا في اللهو والضياع حتى النخاع.... كان راشد يفكر فيما يجب أن يفعله، فهو لا يمكنه أن يتغاضى عن الموضوع، ويتركه يمر كأن لم يكن... والساكت عن الحق شيطان أخرس... راح يفكر فيما سيقوله لهما، وكيف سينصحهما، وفجأة، رنّ منبه الساعة معلناً دخول وقت الفجر، ليحسم راشد أمره، ويقوم من فراشه وقد قرر أن يبدأ منذ اللحظة.
ذهب راشد أولا إلى غرفة ناصر، ودق على بابها في لطف، وراح ينادي ناصر بصوت هادىء:
– ناصر... ناصر... حان وقت الفجر...
لم يتلق راشد أي رد... فعاود الكرة مرات ومرات وصوته يرتفع تدريجيا دون جدوى...
– ناصر! الصلاة !
وأخيراً جاءه صوت ناصر من الحجرة:
– صليت... صليت

– ماذا ؟ ولكن الوقت لم يدخل إلاّ الآن!

وفجأة فتح ناصر باب حجرته، وعيناه شديدتا الحمرة، وقد انتفخت أوداجه غضباً، وانقض على راشد ممسكاً بقميصه في عنف:
– لا شأن لك بي... هل تفهم ؟ إن أبي ذاته لم يكن يجرؤ على إيقاظي من النوم... ولو حاولت أن تزعجني مرة أخرى، فلا تلومن إلا نفسك.

ترك ناصر قميص راشد، وانسحب إلى غرفته مغلقاً الباب في دوي شديد، بينما كان قلب راشد ينبض بسرعة، ورغم ذلك، لم يزدد إلا إصراراً على المحاولة مرة أخرى وبطريقة أخرى.

***

كان جاسم يصفق في هوس جنوني بينما كان يجلس مع ناصر في أحد الملاهي الليلية، وراح يدندن لحناً غربياً حديثاً، وعيناه تحملقان في غباء في كل مرتادي الملهى... ووقعت عيناه على صديقه الذي كان شارد الذهن:
– إلى أين وصلت ؟ عش حياتك ودع الدنيا وراءك..
– أنا أفكر في مشكلة كبيرة، يعجز عقلك الغبي عن فهمها..
– أي مشكلة ؟
– راشد... هذا الفتى الجاد أكثر من اللازم..
– مالنا وله... دعه يضيع شبابه بين الكتب والمحاضرات، ودعنا نمضيه مع الجميلات في البارات!
– لن تفهمني... إن بقاء راشد على حاله مشكلة لنا.. راشد يمكن أن يفضحنا أمام أهلنا إذا رجعنا، ويمكن أن ينقل آخبارنا للبعثة...
– آه! فعلا... كلامك في محله... ما العمل إذاً ؟
– يجب أن ينضم راشد إلينا... ويعيش حياتنا... وينسى دراسته وصلاته..
وهنا لمعت عينا جاسم في خبث شديد وقال:
– بسيطة... شيري يمكنها أن تتولى المهمة!

زوى ناصر حاجبيه في اهتمام وقال:
– أخيراً بدأت تستخدم عقلك.... فعلاً.. شيري هي الحل!
وغرقا في ضحكات آثمة ضاعت مع أصوات موسيقى الجاز التي علت في المكان....

***

كان راشد كعادته في كل ليلة يراجع دروسه في تركيز شديد حينما فتح باب الشقة فجأة ليدخل جاسم على عجل، وتوقف يبحث في درج المفاتيح الذي بجوار الباب، مما أثار انتباه راشد:
– عدت باكراً اليوم على غير عادتك ؟
تلعثم جاسم قليلاً ثم أجاب في ارتباك:
– آ... لقد نسيت محفظتي وعدت لأخذها.
– ظننت أنك قد مللت الوهم الذي تعيش فيه.
– وهم ؟ أي وهم ؟
– جاسم... أنت لم تخلق في هذه الحياة عبثاً... وسوف يأتي يوم تسلم فيه روحك لخالقها... فماذا سوف تقول له ؟
لم يجد جاسم ما يقوله، فقال محاولا الخلاص من كلمات صاحبه:
– سأتأخر.. ناصر ينتظرني... يجب أن أذهب.
قالها مسرعاً واتجه نحو الباب، فتابع راشد:
– ألهذا أرسلك أهلك إلى هنا ؟... ألهذا تصرف الدولة نقودها عليك ؟
كانت علامات الضيق قد بدت واضحة على جاسم الذي فتح الباب واكتفى بقوله:
– إلى اللقاء.
أغلق جاسم الباب بسرعة، واتجه إلى المصعد على عجل ليهبط إلى موقف السيارات، وهناك كانت سيارة في انتظاره، فركض نحوها مسرعاً وفتح الباب وجلس في المقعد الأمامي لاهثاً...
– خذي... ها هو مفتاحه الوحيد.
كان ناصر يجلس خلف مقود السيارة، وفي الخلف كانت شيري، فاتنة الجامعة، تجلس في استرخاء حينما ناولها جاسم المفتاح. أردف ناصر بلهجة صارمة:
– هيا... إنه لك.
ردت شيري في استخفاف وهي تخرج من السيارة:
– لا أعلم لم كل هذا الاهتمام... إنه مجرد شاب صغير... إطمئنا.. لن يستغرق الأمر سوى دقيقة واحدة...

***

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر مساءً حينما أطفأ راشد مصبح مكتبه، وذهب كي يتوضأ، وفجأة خيّل إليه أنه سمع صوت باب المنزل وهو يفتح، أتم وضوءه، ثم تناول المنشفة وخرج ليستوضح الأمر، و...

– أظنني قد جئت في الوقت المناسب!

دهش راشد لما رآه، وقال في استغراب:

– كيف دخلت إلى هنا ؟

ندت ضحكة خفيفة من بين شفتيها، وقالت في همس:

– أهكذا يرحب رجل مهذب مثلك، بفتاة جميلة مثلي ؟

أشاح راشد بوجهه بعيداً عنها وقال في اقتضاب:

– من تبحثين عنهم قد خرجوا.

– لقد وجدت من أبحث عنه... لا تقلق... فأنا لم أخطىء العنوان.

بدا راشد أكثر حدة مع هذه الكلمات:

– أرجو منك أن تخرجي من هنا الآن.

وضعت شيري حقيبتها على المقعد، وباشرت في خلع حذائها كأنها لم تسمع ما قاله راشد:

– إن لم تخرجي فوراً فسأخرج أنا...

ضحكت شيري ساخرة وقالت في ثقة:

– لن تستطيع...

ركض راشد إلى الباب، فوجده موصداً، بحث في درج المفاتيح دون جدوى... وفي لحظة، فهم اللعبة... كانت شيري تقترب منه، وقد خلعت بعضاً من ملابسها:

– المفتاح معي... تعال خذه إن أردت!

أشاح راشد بوجهه مجدداً، لتلحق به شيري:

– هل أنت أعمى ؟! أي نوع من الرجال أنت!؟

– إياك أن تقتربي...

أغمض راشد عينيه... وراحت صور كثيرة تتوالى في مخيلته...

كلمات مدير البعثات... كلمات والده وثقته التي أودعه إياها... سجادة الصلاة التي أوصته بها أمه... وترددت كلماته الأخيرة لإمه في ذاكرته: "هي في قلبي... هي في قلبي!"... وراح جسده ينتفض ودموعه تهطل بغزارة...

– لم أنت خائف ؟... لا أحد يراك هنا!..

أفاق راشد من تأملاته التي مرت كلمح البرق.... نظر أمامه... كان باب الحمام لا يزال مفتوحاً... ركض باتجاهه... ولحقت به شيري... وقعت عيناه على المرحاض... وتتابعت كلماته كالصواعق وهو يشير إليه:

– هل ترين هذا ؟! هل تعرفين كم يستخدمه من الناس ؟! لقد سمحت لنفسك أن تتحولي إلى شيء لا يختلف عنه كثيراً! صرت مجرد وعاء يقضي فيه العابثون حاجاتهم وينصرفوا دون اكتراث... هل يرضيك ذلك ؟! هل تفهمين ما أقول ؟!... أنت مسكينة... مسكينة!

تلقت شيري هذه الكلمات كألف صفعة على وجهها .... وقفت مشدوهة... لقد كشفت لها هذه الكلمات لأول مرة حقيقة ما تفعله...لقد وضعتها كلمات راشد وجهاً لوجه أمام ضميرها وإنسانيتها... ألجم لسانها... خارت قواها... وانفجرت باكية... لقد اكتشفت فجأة حقيقة مرة حاولت أن تغيبها عن عقلها مراراً... راحت تلملم حاجياتها على عجل...فتحت باب الشقة، وخرجت تتعثر هنا وهناك، هبطت إلى أسفل البناية، وراحت تركض لا تلوي على شيء حتى ابتلعها الظلام...

وفي الشقة كان راشد قد خرّ ساجداً على الأرض، وأجهش في بكاء شديد :

– ربي لك الحمد!... أنت صرفت عني كيدهم وشرّهم بحولك وقوتك!.... يا ربي لك الحمد.. لك الحمد!

***

لم تعد شيري بعد هذه الحادثة إلى الجامعة، وتركت الحي الذي كانت تسكنه، وتوارت عن الأنظار، ولم يعرف أحد أين اختفت، أما ناصر وجاسم، فقد تم فصلهما من البعثة، وألزما بالتكاليف، بينما أتم راشد دراسته بتفوق، وساهم في العديد من الأبحاث العلمية من خلال جامعته، وهو اليوم يحتل منصباً مرموقاً في أحد الصروح العلمية العربية...

لقد عاد راشد إلى وطنه وأهله... عاد يحمل إنجازات مشرفة، وشهادات عالية... والأهم من ذلك... أنه عاد يحمل قيمه ذاتها التي سافر بها... والتي أصبحت بعد هذه الحادثة جزء من حياته... والتي لم توقفه أبداً عن الإبداع والإنجاز...

رجع وهو **ثابت** على قيمه

تمت بحمد الله
حامد علاء الدين

rekaaz.com
idea marketing
بنك الكويت الدولي KUWAIT INTERNATIONAL BANK
بنك البحرين الإسلامي BisB
ذي كاسل The Castle
دار الاستثمار Investment Dar
بيت الاستثمار الخليجي Gulf Investment House
سوق شرق
الأبراج Al-Abraj
بداية
الوطن